

2. كتاب هيفاء مجادلة، هموم المرأة العربية في أدب ليلي العثمان،

قراءة في روايتي "العصص وصمت الفراشات"

(إصدار: مجمع اللغة العربية، مطبعة الهدى، 2011، 161 صفحة)

تقدّم الباحثة هيفاء مجادلة للقارئ دراسة رائدة في مجال الأدب النسائي الحديث، وفق روايتين حديثتين للكاتبة الكويتية المرموقة ليلي العثمان، وهما رواية "العصص" (2002) ورواية "صمت الفراشات" (2007). وتركز في دراستها على مسألة لطالما لم تطرح في الدراسات الأدبية والاجتماعية والسيكولوجية، ألا وهي هموم المرأة العربية التي عانت من التمييز والكتب والقهر والاضطهاد عبر قرون. ولم يكن اختيار الباحثة هيفاء للأدبية ليلي العثمان صدفة، وإنما عن وعي وإدراك بين، كون ليلي العثمان تتميز بالكتابة الصريحة والجريئة، بعيداً عن الكتابات الرمزية أو السريالية.

وفي تقديمه للكتاب، تحت عنوان "مبدعة شجاعة وناقدة موضوعية جادة"، يشير البروفسور سليمان جبران إلى أن الباحثة هيفاء مجادلة "لا تهمّب السّير في حقول الألغام؛ تعرف كيف تميّز بموضوعية بين الجوهري والهامشي، بين الغاية السامية وما يعلق بالطريق إلها من شوائب. الغاية السامية هي رفع الظلم التاريخي عن المرأة، في الكويت، وفي المجتمعات العربية كلها، وكل ما عدا ذلك شوائب وقشور".

تشتمل الدراسة على أربعة فصول، تتناول مجادلة في الفصل الأول عدة محاور منها، أهمّ الإشكاليات التي رافقت ظهور مصطلح «الكتابة النسائية» والتي لم تقف عند حدود التسمية، بل تجاوزتها حول طبيعة هذه الكتابة، ومدى تأرجح النقّاد والدارسين بين مؤيد للمصطلح ومعارض له.

بعد استحضار الباحثة للعديد من الآراء حول المصطلح تخلص إلى ثلاثة مواقف أساسية في التعامل مع ظاهرة الأدب النسائي، موقف يقرّ بهذا المصطلح، وبالتالي فهو يقوّر بوجود خصوصية للمرأة وسمات فنية خاصة بكتابتها. وآخر يرفض المصطلح ولا يعترف بوجود تفرقة بين المرأة والرجل في الإبداع الأدبي، وبالتالي فهو يرفض الوقوع في فخّ

الخصوصية. وموقف ثالث هو موقف الوسطية، فهو يقرّ من جهة بخصوصية التجربة الخاصة بالمرأة، ومن جهة أخرى يرفض أن تكون هذه الخصوصية نابعة من خصوصية طبيعية تلازم المرأة، وتشكّل محدّدات للأدب الذي تكتبه.

مسألة أخرى تطرحها الباحثة في هذا الفصل ترتبط بتطوّر الأدب النسائي والمراحل المختلفة التي مرّ بها، بدءاً بالنهضة الأدبية النسائية كمرحلة تقليد ومسايرة الخطّ الإبداعي السائد، وتميّزت كتابات هذه المرحلة بافتقار المرأة الكاتبة لخصوصيتها الفنية، والتزامها بالمعايير الاجتماعية وعدم خرق الموضوعات المحظورة. تبعها مرحلة التمرد والاحتجاج، بعد ظهور رواية "أنا أحيا" عام 1958 للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي، هذه الرواية التي أدّت إلى حالة من الثورة في كتابات المرأة وفق إجماع الكثير من النقاد، تلتها كتابات غادة السمّان وسحر خليفة وأحلام مستغانمي. ولا بد من الإشارة أن هذا التمرد كان نتيجة للكبت والقهر الذي تعيشه المرأة العربية، أو بمثابة تمرد ضدّ القيود الاجتماعية التي فرضتها البيئة العربية على مرّ السنين. ثم مرحلة تحقيق الذات نتيجة لانفتاح العالم العربي على الغرب. بدت فيه الكاتبة أكثر وعياً بذاتها، وأكثر نضجاً وشمولية بمطالبها لحريتها وحقوقها. وحققت هذه المرحلة تنامياً أقوى في ظهور الروايات النسائية، وقد صاحب هذا التراكم الكمي نضج فني وفكري.

ثم تعاین الباحثة هيفاء مجادلة أبرز الموضوعات التي شغلت الكتابة النسائية منها: قضية التمييز بين الرجل والمرأة، النظرة الدونية للمرأة وممارسة العنف ضدها، فضلاً عن هموم العالم العربي، مثل هزيمة العربي عام 1967 والتي هزت مشاعر المجتمع العربي بكل أطيافه وفئاته. ولا تغفل الباحثة أن تشير إلى إشكاليات واجهت الكتابة النسائية مثل تهميش الأدب النسائي، والنقد السريع غير الموضوعي لكتابة المرأة من قبل النقاد والمثقفين، مستعرضة نماذج وأمثلة لمثل هذه الآراء.

في الفصل الثاني تتناول مجادلة الكاتبة الكويتية ليلى العثمان من حيث نتاجاتها الأدبية ورؤيتها الفكرية، كما تبرز نظرتها إلى مصطلح الأدب النسائي، حيث ترفض العثمان هذا

المصطلح ولا تعترف بوجوده. أما نتاجاتها الأدبية فقد توزعت بين الشعر والقصة القصيرة والرواية والمقالة والسيرة، لترصد الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي في المجتمع الكويتي. ترصد مجادلة في الفصل الثالث هموم المرأة وقضاياها كما تجلّت في أدب العثمان، أهمّها النظرة الدونية للمرأة وتعرّضها للاضطهاد والعنف، الزواج المبكر، الفارق العمري بين الزوجين، عدم التكافؤ في الزواج وأضرار ذلك على المرأة، تزويج الفتاة دون موافقتها، التنبية على ضرورة استقلالية المرأة ثقافيًا واقتصاديًا، موضوعة الجنس، تشويه صورة الرجل، التّفاوت الطبقي حائلاً أمام الحب، تشريح علاقات المرأة بالرجل وتركيبها النفسي والاجتماعي، هجاء القهر العائلي والمجتمعي، فرض ثقافة الصمت على المرأة، نظرة المجتمع إلى الأرملة، الفوارق الاجتماعية بين المرأة والرجل، إدانة ازدواجية المجتمع والأفراد، تحكّم ذوي القدرات المادية في مصائر الناس.

ثم في الفصل الرابع تتناول مجادلة هموم المرأة بين مضمون الخطاب الروائي والتقنيّات السردية، حيث تشير الباحثة إلى العلاقة بين الشكل والمضمون، تأخذ على سبيل المثال مما ورد، استخدام ضمير المتكلم لرفض النظام الاجتماعي السائد والذي يحاول قمع المرأة، ثم المكان المفتوح والمغلق لبلورة الشخصيات لتعبر عن نفسها، بينما الزمان كان متداخلاً في عملها "العصص" و"صمت الفراشات" ليلتقي الماضي بالحاضر، في حين أن اللغة كانت عاطفية رومانسية، تتلاءم ولغة المرأة، فضلاً عن موتيفات مختلفة مثل موتيف العصفور السّجين وموتيف الحلم لخلق عالم مثالي يوتوبي.

وإذن، يجد القارئ نفسه أمام دراسة رائدة في الأدب العربي الحديث، لا سيّما موضوعة الأدب النسائي، ودراسة مختلفة عن الدراسات التي سبقها من قبل الباحثين العرب، يكمن فيها الكثير من العمق، وتشبع فضول القارئ والباحث في آن واحد، وهذا يدلّ على قوة الملاحظة والتقد والتحليل والرؤية العميقة لدى الباحثة هيفاء مجادلة، بأن ذلك من خلال مبنى البحث المتتابع، والأسلوب العصري، وطريقة الدراسة التحليلية اعتماداً على نصوص مختارة، والاطّلاع العميق على دراسات سابقة تتناول الكتابة النسائية بشكل عام. والمجمل فإن مجادلة، قد سطرّت محورًا جديدًا لدراسة الأدب النسائي من جديد.